

الملامح الاجتماعية في الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية من خلال الإنتاج الأدبي لمحمد ديب
**Social features in Algeria during the colonial period as reflected in
 the literary works of Mohammed Dib**

¹ د/ عبد الرزاق قشوان **Abderrezak Kechouane**

¹ جامعة الجزائر 2 (أبو القاسم سعد الله)

¹ المؤلف المرسل: قشوان عبد الرزاق **Abderrezak Kechouane** البريد الإلكتروني: taounzamahfoud@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2025/10/ 11 تاريخ القبول: 2025/10/ 25 تاريخ النشر: 2025 /12/28

الملخص:

عاش المجتمع الجزائري أثناء الفترة الاستعمارية أوضاع غير مرضية، بسبب الممارسة الاستعمارية المقيتة، وتعتبر من أبشع الممارسات الظالمة وغير إنسانية طيلة الفترة الاستعمارية. فجرت تلك الممارسات قريحة الأديب الجزائري محمد ديب قريحته للكتابة، إن محمد ديب الابن البار لوطنه جعل من القلم وسيلة للدفاع عن تلك الممارسات المجحفة وهو نوع من أنواع المقاومة لصالح شعبه وضد الممارسات اللا إنسانية في ظل الاحتلال. يعبر الإنتاج الأدبي لمحمد ديب مظهر وملح للوضع المزري الذي طالما وصفه الكثيرون من المؤرخين والأدباء والكتاب بكل أصنافهم وهذه الورقة البحثية أردت من خلالها إبراز الوضع الاجتماعي للمجتمع الجزائري تحت الاستعمار الفرنسي .

الكلمات المفتاحية: الملامح الاجتماعية، الجزائر، الفترة الاستعمارية الفرنسية، محمد ديب، الإنتاج الأدبي.

Abstract:

Algerian society experienced unsatisfactory conditions during the colonial period, due to abhorrent colonial practices, considered among the most heinous, unjust, and inhumane practices throughout the colonial period. These practices sparked the Algerian writer Mohamed Dib's creative potential. A loyal son of his country, Mohamed Dib used his pen as a means

of defending these unjust practices, a form of resistance for his people and against the inhumane practices under occupation. Mohamed Dib's literary output reflects a manifestation and a glimpse of the dire situation that has long been described by many historians, writers, and authors of all stripes. Through this research paper, I sought to highlight the social situation of Algerian society under French colonialism.

Keywords: Social features; Algeria; Mohamed dib; Literary production.

1. مقدمة:

تعتمد الدراسات التاريخية المعاصرة على الكثير من المصادر التاريخية ويعتبر الإنتاج الأدبي من أهم هذه المصادر لأنها تعبر عن عمق الواقع الاجتماعي. فالوضع الذي عاشه المجتمع الجزائري أثناء الفترة الاستعمارية جد رهيب ومستمر والقاتل لأنه ارتبط باستعمار استيطاني هدفه مسح مقومات شعب ليغرس مكانها مقوماته ويسلب شخصية هذا الشعب ليغرس شخصيته وهنا نجد الكثير من الجزائريين المثقفين جادت قرائحهم للدفاع عن شعبهم وتواجدهم بطرق شتى وفنون مختلفة.

يعتبر محمد ديب من هؤلاء الأدباء والفنانين الذي يعبر عن أوضاع اجتماعية وسياسة استعمارية تظهر بارزة من خلال إنتاجه الأدبي الفني في قصصه المملوءة بمظاهر الأنين وصور الفقر وتداعيات التجهيل.

أردت من خلال هذه الورقة البحثية إبراز أهمية الفن الأدبي لمحمد ديب عرض الأوضاع بعض الملامح الاجتماعية للمجتمع الجزائري خلال الفترة الاستعمارية فهي صورة من واقعه الاجتماعي.

2. صورة المرأة والطفل:

كتب فرانتز فانون "Frantz Fanon" في جريدة المقاومة الجزائرية الصادرة بتاريخ 16 ماي 1957م يقول: "لقد وصف المفكرون الاستعماريون المرأة الجزائرية بأوصاف مختلفة، إنهم يزعمون أنها أسيرة، مهانة، متغيبية عن الحياة...، وأنه يجبرها على أن تقبع في طفولة دائمة، فتعلق المرأة الجزائرية ببيتها لم يكن يعني كراهية الشمس أو الهروب من العالم، ذلك أن الانطلاق والانطواء كان يعني المحافظة على بذرة الإخصاب داخل وجود محدود، لكنه منسجم ويمثل القوى الأساسية للشعب المضطهد".¹

كما كتب مُحمد السعيد الزاهري أحد أبرز الأعضاء في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في العدد الأول من جريدة السنة يقول: "والذي يسرني جدا أن نساءنا ما زلن يعتقدن أن الحجاب هو إمارة الشرف والاستقامة، وعنوان العفاف والتقوى"². ويقول موريس فيوليت: "لأن السواد الأعظم من النساء الجزائريات يرتدين زيهن التقليدي ولباسهن المحتشم أثناء خروجهن لقضاء حوائجهن"³، فيظهر هنا فشل الأساليب والطرق الفرنسية الهادفة للقضاء على الدين الإسلامي ومسح الشخصية الوطنية الجزائرية.

إن الأهمية التي تلعبها المرأة الجزائرية في الحفاظ على الثقافة المحلية -وهو نوع من المقاومة، لم يستطع الفرنسيون محاربته بالمواجهة لأن ذلك كان إعلانا بالفشل- جعل السينما الكولونيالية تستهدف هذه الفئة الحساسة، وتعلق بها إشاعات عن غراميات واختلاط جنسي أكثر من مرة من خلال الأفلام التالية: "في ظل الحریم، الشهوة، المرأة والعنديل" ⁴.

واجهت المرأة الجزائرية الكثير من العقبات للتصدي لهذه الأوضاع المزرية، خاصة وأنها في كثير من الأحيان كانت لا تمتلك ما يعول أسرتها، فتضطر إلى تجسید حیل لتقنع أبناءها بأن وجبة الغداء أو العشاء ستجهز قريبا، وفي هذا الصدد يقول مُحمد ديب: "كانت عيني فيما مضى من زمان تستطيع أن تهدئهم بحيلة ماكرة، كانوا يومئذ صغارا، كان يكفي أن يكون عندها قليل من فحم عند المساء، حتى تملأ الحلة ماء، وتدع الماء يغلي على النار، وتطلب إلى أولادها التي تنتظر بفارغ الصبر أن يهدؤوا قليلا أن يناموا"⁵.

إن هذه الحيلة كانت تلجأ إليها مختلف النساء في العائلات الجزائرية عشية انتهاء الحرب العالمية الأولى، لتنسي أطفالها الجوع نظرا لانعدام توفر الطعام وتأخر توزيع المئونة، فنجد ديب يوضح هذا في كل جزء من أجزاء رواياته قائلا: "وكانت زليخة، التي تسكن تحت تلجأ إلى هذه الحيلة نفسها مع أولادها، وهم أربعة صبيان لا يكادون يقومون على الوقوف على أقدامهم الرخوة، كان الخبز يعوزها في أحيان كثيرة كما كان يعوز "عيني"، ويقول أيضا: "قالت "عيني": لا تقولي يا عزيزتي زينة أننا تغذينا، بل قولي إننا خادعنا الجوع، نحن نتمنى لو نتغذى، طبعاً نتمنى"⁶.

د/ عبد الرزاق قشوان الملامح الاجتماعية في الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية من خلال الانتاج الأدبي لمحمد ديب

يدفع هذا الضيق الأولياء إلى الانفعال والصراخ في وجه أبنائهم، هذا بالذات ما نجده في دار السبيطار خاصة "عيني"، فما أن يفتح "عمر" عينيه حتى يسمع من أمه ما تيسر من الشكوى والاحتجاج،⁷ قائلة: "هذا كله ما تركه لنا أبوك، ذلك الرجل الذي لا يصلح لشيء، ترك لنا البؤس، غيب وجهه في التراب، وسقطت على جميع أنواع الشقاء، الشقاء هو نصيبي طوال حياتي".⁸

إن النساء الجزائريات كن يؤدين دورهن كزوجات ويمسدن مسؤوليتهن كأمهات بكل جدارة، ويساعدن أزواجهن في تحمل عناء المعيشة، علما أن تسيير هذا البيت يتماشى مع إشكالية الخوف اليومية من النظام الكولونيالي، وما رافقته من الحاجة إلى توفير القوت اليومي ومحاربة ظاهرة الجوع لدى الأطفال الصغار، هذا ما يوضح لنا شخصية المرأة الحريصة على تنظيم شؤون بيتها، ولا تهتم فقط بالبكاء والعيول عند الموت، أو سجن أحد أفراد العائلة من قبل البوليس الفرنسي.⁹

يقول مالك بن نبي: "ففي العائلة لا بد أن يجوع الصغار متى فقد الأب عمله، غير أن أمي كانت تحول دون ذلك بممارستها للخياطة، وبالتالي فهي التي كانت تمسك بكيس النقود الذي كان دائما فارغا، ولا أزال أذكر كيف أنها اضطرت ذات يوم لكي تدفع لمعلم القرآن الذي يتولى تدريسي بدل المال سريها الخاص، وأذكر أنه كان مصنوعا من عدة ألواح من الخشب رقعت على صاقلين، وكان هذا ما يسمى في الجزائر آنذاك (السدة)".¹⁰

هذا ما يوضح أن حالة النساء والأطفال كانت متشابهة في أغلبية البلاد الجزائرية. ويقول أيضا: "موارد العائلة كما ترى كانت هزيلة، إلا أننا كنا نحصل على قوتنا بفضل حسن تدبير. أمي وانكبها الليالي الطوال على عملها، ولكن أمي في إدارتها لشؤون العائلة كانت تعرف أن ما يحصل عليه أطفالها من غذاء غير كاف، فكانت تسد هذا النقص بعمل إضافي أيام الجمعة، كان هذا العمل الإضافي يعطينا أنا وشقيقي يوم الجمعة قطعة من الرفيس"¹¹، لأن العمل الإضافي كان الوسيلة الوحيدة لتأمين قوت الأطفال اليومي.

كان الوضع في كل المناطق الجزائرية، أين تكون الأولوية فيها للذكر على حساب الأنثى، تعيش المرأة حياتها دون عمل، دون حقوق إنسانية، دون أموال ومصاريف، وتحفظ فقط بإمكانية تزويد العالم كل سنة بطفل جديد، وفي حالة غياب الأب تكون الأم مجبرة على إعالة أبنائها دون أن تقدم لها يد المساعدة من

أي أحد، فتتوجه إلى سوق الغزل ومصانع السجاد، يقول ديب: "إن المبلغ الذي تتقاضاه أجرا على عملها كان من تفاهته يثير الخنق حقاً، ولا مخرج من هذا العسر الذي كانوا فيه، إنها تحيط سيقان أحذية القماش منذ بضعة شهور، ومع ذلك لم يشبع أفراد الأسرة مرة طوال هذه المدة"¹²، وهنا يتفق كلا من "محمد ديب" و"مالك بن نبي" على أن العمل لم يكن يوفى احتياجات الأسرة، ولم يكن يسد رمقهم، بل فقط كان يؤمن لهم قطعة صغيرة من الخبز كي لا يموتوا من الجوع فحسب.

فقد تولدت صورة تشاؤمية للحياة من قبل النساء والأطفال نتيجة للجوع الذي تفاقم في الأوساط الجزائرية، هذا من جهة ومن جهة أخرى، نتيجة لليأس الذي تملكهن لأنهن لم يكن بوسعهن أن يوفرن قوتا أطفالهن مع مضاعفة العمل.

مارست المرأة الجزائرية مختلف الأعمال الشاقة بدون كلل أو ملل دون أن تحصل على أي قسط من الراحة، فضلا على اشتغالها في كثير من الأحيان خارج منزلها سواء في أرضها أو في أعمال أخرى.¹³ كان الأولاد الجزائريون يلعبون في شكل عصابات صغيرة، وهم دوما على أهبة الاستعداد للفرار أمام رجال الشرطة الذين يطاردونهم في كل مكان، قد ألبسوا أودية عتيقة بالية، ذوات أكمام مشمرة عند المفصلين وفي أرجلهم أحذية رجالية، صفر الوجوه، عيونهم سوداء، ينظرون باستغراب إلى الناس والأشياء، هم نشطون لا يفتؤون عن التشاجر وملاحقة بعضهم بعضا، وبما أنهم مكروهون ومضطهدون من قبل المدنيين، وجب عليهم الفرار في كل لحظة يتبعهم غضب الناس، إنهم يمتنون الشحاذة وفي بعض الأحيان النشل والسرقه، ينظرون بعيون شاحصة ثابتة إلى الرجال والنساء والأولاد الأوروبيين، ينظرون إليهم، بل يحملقون بانتباه متجمع، مما يظهرهم أسن ما هم عليه في الحقيقة، وينظرون بصورة غريزية إلى ثياب الأوروبيين الجديدة وأجسامهم النظيفة السليمة التي لم تعرف الجوع، والأطفال الأوروبيون يخشون عادة أطفال العرب، وإذا أرادت أمهاتهم أن يخيفوهم صرخن مهددات: "سأنادي العربي".¹⁴

إن مصير الأطفال الجزائريين هو الحرمان منذ نعومة أظفارهم، فيتوجهون للشارع ليهيموا على وجوههم وينكبون على إدمان الخمر والسجون.¹⁵

د/ عبد الرزاق قشوان الملامح الاجتماعية في الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية من خلال الانتاج الأدبي لحمد ديب
كان الأطفال يتناولون حصتهم من الخبز خفية خوفا من أن يفقدونها عنوة، الأمر الذي وضحه مُجدّد
ديب في مواطن عدة من صفحات روايته فيقول: "كان ثمة تلاميذ يبلصهم عمر في كل يوم، يطالبهم
بنصيبه، فإن لم يطيعوا أمره فوراً، كان جزاؤهم الضرب في كثير من الأحيان، غير أن الماكزين من التلاميذ
كانوا يلتهمون خبزهم أثناء الدرس في الفصل".¹⁶

كانت الطبقة الفقيرة في كثير من الأحيان تعيش من خلال الصدقة، كما كان الأطفال الصغار يحصلون
على قطع صغيرة من الخبز، وبقايا أطعمة مقابل مساعداتهم لبعض العائلات في الشؤون المنزلية، فيقول مُجدّد
ديب: "وكان عمر يحصل على الخبز في دار السبيطار بطريقة أخرى، كانت يمينة ... تعود من السوق في
كل صباح بقفة مليئة، وكثيراً ما كانت ترجوا عمر أن يقوم عنها ببعض الأعمال، يشتري لها الفحم، ويملاً
دلوها من ماء العين، ويحمل عجنيها إلى الفرن، وكانت يمينة تكافئه عند عودته بقطعة من الخبز مع ثمرة من
الفاكهة أو مع فلفلة مشوية، حتى لقد كانت تعطيه من حين إلى حين قطعة من اللحم أو سردين
مقلية ...، ثم جاءت بطبق قد احتفظت بشيء من طيب الطعام فيه...، كانت يمينة لا تقدم له إلا بقايا
الطعام ولكنها بقايا نظيفة".¹⁷

نشأ أغلبية الأطفال الجزائريين في أسر فقيرة بائسة، يعيشون في بيوت قديمة، ضيقة، جدرانها متآكلة، لا
تتوفر على أدنى وسائل الراحة، فيفتشون الأرض، وبالتالي لا يسلمون من حر الصيف ولا من برد الشتاء،
يقول ديب: "الثلج هائل لا محالة في تلمسان متى انخفضت درجة الحرارة في شهر فبراير، كان عمر يضع
قدميه المتجمدتين على البلاط، وعيني عارية الساقين حتى الركبة، ترتدي قميصاً رقيقاً مشموراً فوق سروال
من الخام، وقد شددت كتفيها بمنديل ممزق".¹⁸

كان عمر من القلائل الذين أتيح لهم فرصة التعليم، أما أخته فلم يكن لهما ذلك الحل، لأن الفتاة في
ذلك الوقت مكانها المكوث في البيت حسب تقاليد المجتمع الجزائري أولاً، واضطهاد السياسة الفرنسية
ثانياً.¹⁹

أما فيما يخص الأطفال الذين يقطنون الأرياف فكانوا يمتهون الرعي عند الكولون أو عند كبار الملاك
مع جلب العلف والحشائش للأرانب في المنتجات الخاصة بالمستوطنين أو القياد أو شيوخ الفرقة، بدون

الحصول على أجر لأنهم كانوا يتلقون فقط قوت يومهم وما يتناولونه أثناء عملهم كمكافأة لهم على مجهوداتهم.

لقد عانى أطفال القرى والأرياف من الفقر والبؤس بشتى أنواعه، لدرجة أنهم كانوا يفترشون الدوم مع غطاء شبه منعدم، وملابسهم كانت مقتصرة على عباءة بالية وأقدام عارية، مكتفين في وجباتهم على كسكسي مصنوع من دقيق البلوط ودقيق الشعير ونخالة القمح وخبز بالماء أو بالبصل إن وجد، الشيء الذي دفعهم للجوء إلى سلك العمل في سن صغير.

توضح "الدار الكبيرة" الصورة المأساوية للطفل، بحيث أن كل الأطفال يعانون من نفس المشاكل (البحث الدائم عن الخبز)، كما تبين لنا الأطفال من طبقات اجتماعية مختلفة من خلال المقارنة بين الأطفال بواسطة عرض أوساط اجتماعية متباينة تظهر وضعية الطفل في المجتمع الكولونيالي، وفي الجهة الأخرى نجد جيلا آخر من أبناء المستوطنين الذين يعيشون حياة ملأها الغناء، حيث أنهم لم يعرفوا الجوع والبؤس أبدا،²⁰ وفي هذا الصدد يقول محمد ديب: "كان أحدهم، وهو صبي غير متكرر، لا يعرض أثناء كل فترة من فترات الاستراحة بين الحصص خبزا فحسب."²¹ بينما يتحدث في موضع آخر عن الأطفال الجزائريين يقول: "إن المرء يصادف في كل مكان من الشوارع أطفالا من هؤلاء الأطفال الذين يظفرون حفاة الأقدام، إن لهم أعضاء كأعضاء العنكبوت وهنا، وإن أعينهم لتتقدم من الحمى".²² هنا تتضح لنا الصورة المعكوسة التي تسبب فيها الاستعمار الفرنسي في الجزائر، أين قلب موازين القوى، فأضحى السكان الأصليون يعيشون حياة بائسة، بينما يعيش المستوطنون حياة ملأها الرقي والازدهار.

صرح ج. توماس²³ "J.Thomas" في تقرير له يصف فيه حقيقة الوضع الاجتماعي والصحي والمعيشي، الذي آل إليه الجزائريون بعد قرن وربع القرن من الاستعمار الفرنسي بما يلي: "لقد عشت في مدينة الجزائر فترة طويلة، ولقد رأيت فرقا من الأطفال في أسمال بالية، يجنون قوت يومهم ابتداء من سن الخامسة ببيع الجرائد ومسح الأحذية، ورأيت أعشاش القصدير في الأحياء العربية، وهي أماكن تعبر عارا على الحضارة الغربية، وأثناء جني الكروم التقيت بعمال المزارع يمشون مسافة مئات الأميال بحثا عن العمل، ينامون في

د/ عبد الرزاق قشوان الملامح الاجتماعية في الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية من خلال الانتاج الأدبي لمحمد ديب
الليل في الحفر ويتغذون ببعض حبات من التمر أو من العنب... وشاهدت أطفالا عمرهم سنة واحدة
يأكلون التراب، كما شاهدت مائتي شخص يموتون من الملاريا في بضعة أيام بغرداية، فكيف لا تحصد
الثورة؟ عندما نكون قد زرعنا خلال هذه المدة الطويلة الحقد والإهانات، والبؤس".²⁴

الشيء الذي يبين لنا أن حالة الأطفال الجزائريين كانت نفسها في كل مناطق البلاد ومن جهة أخرى
توجه الأطفال الصغار لسلك العمل، فمنهم من امتنن الشحاذة ومنهم من امتنن بيع الجرائد وتلميع
الأحذية، والبعض الآخر وجد مكانا له في بعض المحلات والدكاكين، فيقول ديب: "إن أحد أبناء العمّة
حسنة كان قد وضع عمر عند حلاق من الحلاقين، فكان عليه أن يذهب إلى الحلاق كل يوم بعد الظهر
عند خروجه من المدرسة".²⁵

في الوقت الذي كانت فيه النساء الجزائريات تفكرن في طريقة لتأمين وجبات الطعام لأبنائهن، كان
الأطفال الصغار يحاولون مساعدة أمهاتهم من خلال النباش في أكياس القمامة الخاصة بالأوروبيين وبعض
الجزائريين العاملين لصالح فرنسا، وهذا ما وضعه "مُجدّ ديب" حين قال: "أما عمر فكان يشعر بموت في
نفسه من طول ما نبش أكوام الفضلات في السوق المسقوفة، كان يذهب إلى السوق بحثا عن خضر يمكن
الانتفاع بها، فإذا عثر على شيء منها، أخذ يلتقطه ويدسه في قفّته".²⁶

3. وضعية العمال والفلاحين: تسببت سيطرة المستوطنين الأوروبيين على الملكيات العقارية في تعقيد حياة
أكثر من سبعة ملايين فلاح جزائري كادحين، تنحصر مواردهم في أراضيهم في المناطق الزراعية، فانتشرت
البطالة بشكل خطير، واضطر العمال المزارعون إلى الهجرة شبه الجماعية إلى المدن، والاستقرار على أطرافها
في أحياء قذرة بنوها بأنفسهم من القصدير والخرق البالية والبوص وقطع الخشب وعلب الأطعمة
الفاخرة.²⁷

تعيش هذه الطبقة في مستوى منخفض جدا، أغلب أفرادها عاطلون لا يعملون إلا أعمالا مؤقتة
مثل: مسح الأحذية والحماله ومسح البيوت وبيع الصحف والعمل اليدوي، والبناء والزراعة والأشغال
العامة وغيرها، ويشكل التجار والبائعون الصغار والحرفيون حوالي 30% من هذه الطبقة في القرى المجاورة
لمدن التي يسكنها المستوطنون الأوروبيون.²⁸

إن الكثير من أهل البادية والقرى الصغيرة لم يعودوا يتحصلون على ما يسد قوت يومهم، حتى صارت المجاعة تهددهم، إلى أن وصلت مجلة الشهاب تطالب باستخدام العمال الجزائريين في المشاريع المحلية بدل استخدام اليد العاملة الأجنبية من الإسبان والإيطاليين وغيرهم.²⁹

لا توجد إدارة تهتم بشؤون الأهالي ومصيرهم، الأمر الذي جعل الحالة الاجتماعية تتفاقم فأخذ بعض العاطلين عن العمل يقومون بكراء يدهم بالأجرة، وبقي البعض الآخر مشردين مطرودين منبوزين ينتقلون من كوخ لآخر، حسب أهواء سادتهم لا مدرسة لأبنائهم، ولا نار تدفئهم ولا نور ينيرهم بعيدين عن المستوطنين.³⁰

إن نظام الخماسة³¹ أفقد الفلاح الجزائري كل حقوقه، فتسبب في الإنقاص من مدخوله من عام لآخر، وذلك بدلا من التزايد (أو على الأقل المحافظة على الوضع على ما هو عليه)،³² بالرغم من أن الغلال كانت تتزايد كل سنة بفضل الآلات والمكينات، إلا أن الخماس لم يستفد من هذا الوضع المتطور، والسر في ذلك يكمن في عقلية المزارع الذي يجد نفسه مجبرا على استدعاء عدد متزايد من الفلاحين بحكم تطور الأعمال، في حين يبقى النصيب المحدد للقسم هو "الخمس"، الأمر المؤدي إلى تناقص حصة الفلاح.³³

وهذه الحالة أدت إلى تدهور وضعية الفلاح المادية والمعيشية، هذا ما نلتمسه في العديد من صفحات كتابات محمد ديب، وكمثال على ذلك ما يلي: "إن حياتهم تنقضي أيام زراعة ورعي لدى المستوطنين الفرنسيين، والفلاحون كثيرا ما تلم بهم المجاعة، وحين يحيط الليل فيبتلع الظلام تلك الأكواخ الحقيبة التي يسكنها هؤلاء الفلاحون، وذلك حين يقع بصرك على عصابات عارمة من أطفال يرتدون أسمالا خلقة".³⁴

وابتداء من سنة 1932م، نبه المنتخبون الإدارة عن مأساة الفلاحين، وطلب المستشارون العامون لمدينة الجزائر من السلطات التفكير في الوسائل المالية التي من شأنها حماية البؤساء في السهول المرتفعة لمدينة الجزائر من الموت جوعا.

د/ عبد الرزاق قشوان الملامح الاجتماعية في الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية من خلال الانتاج الأدبي لمحمد ديب
كان الفلاحون يتدفقون أكثر فأكثر على المدن، وبدأ البؤس في جهات عديدة، فقد تأثرت³⁵ على سبيل
المثال منطقة القبائل كثيرا بكساد التين، واختيار مؤشر الزيوت والصعوبات التي كانت تعيق الهجرة نحو
فرنسا.³⁶

يكون العدد الظاهر للعمال الفلاحين قد تطور من 210000 في سنة 1914م إلى 462000 سنة 1930م،
و573000 سنة 1954م، كما كان الفلاحون الذين يقومون بالهجرة الموسمية مثلا يقدرون بعدد 175000
في سنة 1938م و40960 في سنة 1948م و77000 في سنة 1954م.³⁷

إن الملاحظات الملموسة التي يمكن القيام بها قبل 1954م تؤدي إلى الاعتقاد بخفض كبير لعدد الفلاحين،
إذ لم تعد كل مزرعة جزائرية تشغل إلا نصف عمالها السابقين، واليد العاملة المؤقتة هي من دون شك
الأكثر تأثرا بإدخال آلة الحصاد والدرس.

كانت الأجور منخفضة على العموم في مقاطعة وهران وأكثر انخفاضا في مقاطعة قسنطينة، حيث
يتقاضى العامل مثلا 4 إلى 5 فرنكات في سنة 1924م، و7 إلى 9 فرنكات في سنة 1930م، و9 إلى 12
فرنكا في سنة 1932م، و6 إلى 9 فرنكات في سنة 1934م،³⁸ غير أن معظم العمال لم يكونوا يعملون سوى
عددا محدودا من الأيام في السنة، كيف يمكن العيش لعائلة عامل يتقاضى ست فرنكات في اليوم ويشغل
أقل من ستة أشهر في السنة؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى، كان العامل المسلم يتقاضى دائما أجرا أقل
من أجر الأوروبي مع العلم بأنهما يقومان بالعمل نفسه، وهذا ما يوضحه محمد ديب من خلال ما يلي: "إن
العمال الزراعيين أصبحوا لا يستطيعون أن يعيشوا بهذه الأجور الزهيدة التي يتقاضونها، إنهم سيتظاهرون
بشدة ويجب أن نتخلص من هذا البؤس."³⁹

العمال الزراعيون هم أولى ضحايا الاستغلال الذي يعبت في بلادنا فسادا، إن العمال الزراعيين مقبلون
على معارك كبيرة، الأجور لا تزيد على ثمانية أو عشرة فرنكات. ويقول أيضا: "إننا لا نطلب إلا أجورا
أعدل، هل من الشر أن يطالب الإنسان بما يسد رمقه لا أكثر؟، هل من الشر أن يطالب الإنسان
لأطفاله بطعام يقيم أودهم فحسب؟، هل ذنبنا أن أطفالنا يكون كثيرا؟".⁴⁰

أصبح الفلاح الجزائري يشكل بروليتاريا زراعية بعد أن انتزعت منه أرضه، ولجأ إلى التكسب في المدن
لتنتشر بذلك أكواخ القصدير وتنتشر الأوبئة والإدمان على المسكرات،⁴¹ فضلا عن جماعة من طالبي

الصدقة والمتسولين، أما أولئك الذين مازالوا يتشبثون منهم بالأرض فإنهم يعيشون عيشة ضنكا، يكافحون على الدوام الجوع، القايذ، و رجال الدرك وحارس الغابة، وجامع الضرائب، وعون التبغ، وديوان القمح، وجهاز العدالة،⁴² فنجد مُجدد ديب يصف لنا حالة الفلاحين الذين لجئوا إلى المدن على شكل طوابير ضخمة من المتسولين، وهم في أبشع صور الفقر والبؤس، فيقول: "عظي عليهم جميعا غلاف من الغبرة السمرء، كانوا يرتدون خرقا متماثلة، فرغت السلطات العمومية من تعبئة آخر عناقيد المتسولين في عدة شاحنات، ومن جديد عادوا، على غرة هذه المرة.

وبمجموع تفوق بكثير أعداد اليوم الأول...، كانوا يأتون من داخل البلاد، من أعماق تتجاوز المناطق المجاورة، اجتاز كثير منهم عشرات الأميال، ومنهم من تقاطروا من مناطق الجنوب".⁴³

كان عمل الفلاحين الأساسي مقتصر على جني العنب في مزارع الكروم الخاصة بالمستوطنين،⁴⁴ يقول ديب: "نحن نعمل في الكروم، أنا أعمل في مزرعة ماركوس، لم يبق هنا عمل، يمكن الذهاب إلى منطقة أخرى"،⁴⁵ وتجدهم يمارسون عملهم بشكل مجهد جدا، وينامون في أكواخ من الحجر والطوب، فيصفهم ديب قائلا: "إنك لا ترى هنا إلا أكواخا وخصاصا، وعددا قليلا من بيوت الحجر يسكنها المزارعون، ولا تكاد تختلف عن مساكن الفلاحين..."⁴⁶ سكان بني بوبلان في أثناء ذلك تقطر أجسامهم عرقا ودما من أجل أن يزرعوا قطعة صغيرة من الأرض...، والمزارعون في بني بوبلان لا يكسدون شيئا من أوراق النقد التي يصدرها مصرف الجزائر، لا ولا يجمعون ذهباً أو فضة، لم يدخروا قرشا في يوم من الأيام، وعليهم أن يعملوا عملا قاسيا مجهدا".⁴⁷

صادرت السلطات الفرنسية كل الممتلكات العقارية بما في ذلك أراضي الأوقاف والحبوس، فيقول مُجدد ديب: "القانون يحرم عليهم امتلاك أراضيهم، ألغيت سندات التملك القديمة، لا يرث أحد أرضا عن أسلافه، الحبوس صودرت وكذلك أراضي المشاع، ثم قالوا للفلاحين، من كانت له شكوى، فليراجع المحاكم".⁴⁸

د/ عبد الرزاق قشوان الملامح الاجتماعية في الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية من خلال الانتاج الأدبي لمحمد ديب
عرفت الأوضاع المعيشية للفلاحين تدهورا كبيرا نتيجة للقوانين التعسفية التي أسفرت عنها السياسة
الاستعمارية، يقول مُحمَّد ديب في وصفه لمجموعة من فلاحي قرية بني بوبلان في مقاطعة تلمسان: "والمزارعون
يقتاتون باليسير من الطعام ويعيشون عيشة فقيرة، منذ خمسة عشر يوما لم تر قطرة من الزيت في بيتنا، إني
مدين للبقال، وليس معي ما أدفعه له، إننا نموت شيئا فشيئا، إننا نطالب بحق الحياة لنا ولأطفالنا، يقول
علي بن رباح".⁴⁹

إن حياة العمال في المدينة ليست أحسن حالا من حياة الفلاحين في الأرياف، فهم يعانون من ضغط
العمل وضعف الأجور، وأوامر صاحب العمل، فضلا على سلبية المكان وسوء التغذية، الأمر الذي
جعلهم عرضة لكثير من الأمراض والأوبئة وعلى رأسها التيفوس والملاريا، يقول مُحمَّد ديب: "تولى النساج
إلى منسجه وعاد بقطعة رغيف من شعير، وقبضة من الزيتون الجاف، فوضعها بين يديه".⁵⁰ ويقول أيضا:
"كان النساجون في سعي حثيث، حافية أرجلهم، متأكلة قمصاتهم وسراويلهم، وملطخة بالصبغة، كان
الإصرار باديا عليهم"....⁵¹ روحنا أشبه بهذا القبو، ففي الفوق أناس أحرار هنا العبيد، وهل يزيد في قيمة
العبيد أن يحصل على مبلغ "دورو" زيادة في اليوم؟، فماذا تمثل المطالبة بقطعة خبز؟... "يأمر بأن ننسج
أربعين حبلًا في اليوم، وهو ما يساوي خدمة ما يعبر ثلاثمائة وعشرين رطلا من الصوف".⁵²

يقول مُحمَّد ديب واصفا وجبة الغذاء الخاصة بعمال المناسج في المدن: "كانوا يأكلون الخبز باللبن، بعضهم
يأكل الخبز والزيتون، بينما يرفق آخرون خبزهم بالبطاطا، طهيت في ماء كثير، مع قطرات من الزيت، فوق
رؤوسهم أنسجة عنكبوت طويلة تتدلى بكيفية رخوة، تشكل الغبرة، تحت أرجلهم قشرة رقيقة بيضاء، نفس
الغبرة كانت تلتصق لتشكّل غشاوة غير ملموسة في كل شيء، في حطب المناسج، في تنوءات الجدران، في
الخيوط الكهربائية، وفي الحبال الممتدة من طرف الورشة إلى طرفها".⁵³

كانت معنويات العمال تثبط في كل صبيحة، فهم يرون أبشع مناظر المتسولين عند توجيههم إلى المعامل
فيقول ديب: "في تلك اللحظة بالذات، وقع وسط حلقة من الفضوليين، كانوا محيطين بامرأة ذات جسم
طويل، وجه نحاسي ممدد، كانت جالسة وسط الرصيف بلا حركة، كانت أطرافها وسخة إلى درجة تجعل
من يشاهدها، يعتقد أنها خرجت من غطس في الوحل، غطت رأسها وكتفها بخمار ملطخ أسود مثل
الحرق التي عليها، كان نظرها أشبه بصرخة تستثير فضول المارة، كانت المجموعة الصغيرة تحيط بها من غير
أن تتفوه بكلمة، رأى عمر أمامها كائنا صغيرا مقمطا بخرق وسخة، موضوعا على الأرض".⁵⁴

4. الخاتمة:

تعد أعمال الكاتب محمد ديب أعمالاً غنية بالصور والأفكار، وهي تتوالد وتنوع ضمن نطاق عام قائم على الشعور بالقسوة والاعترا ب، وهو يريد من هذه الأعمال الوصول إلى فكرة الخلاص من خلال الثورة على الظلم والقهر، فخرجت شخصياته متنورة بعمق معرفتها بإطارها التاريخي ووعيتها بحقيقة ما يجري داخل البلاد، فحرص بهذا على تهيئة المتلقي لقادم قد يكون أشد وطأة، ولكن نتائجه ستكون أفضل بكثير. ويمكن ان نجعلها من اهم المصادر التاريخية التي تؤرخ لأوضاع الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى والوضاع التي عاشها المجتمع الجزائري، وخاصة اثناء الازمة الاقتصادية لسنة 1929 وما تلاها من شح وتقتير في المواد الأولية وما تلاها من نمو الحلفاء من النازيين والفاشيين والتحضير لاندلاع الحرب العالمية الثانية، وعملية التجنيد الاجباري التي جاءت بعد النصف الثاني من العقد الثالث من القرن العشرين. وهنا نشطت الحركة الوطنية أكثر وازداد الإنتاج الادبي للكتاب والادباء الجزائريين معبرين عن استيائهم لوضع الجزائريين، امام إصلاحات الفرنسية الموهمة مثل مشروع بلوم -فيوليت وانتكاسة الوفد الجزائري للمؤتمر الإسلامي لتحقيق أهدافه وتزايد سياسة فرنسا ضغطا على الجزائريين، وتزايد الوعي الجزائري تصاعدا من اجل تحقيق أحلامه وأهدافه وهو الاستقلال، وكل دافع من جهته عن الجزائريين سواء ادباء او فنانيين أو سياسيين.

- ¹ محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م، ص 67.
- ² محمد السعيد الزاهري، السنة عن النساء الجزائريات، جريدة السنة، ع 1، الجزائر، 1933/04/30م، ص 2-7.
- ³ Maurice Violette, L'Algérie vivra-t-elle?, Librairie Félix Qlcan, 108 Boulevard Saint-Germain, Paris, France, 1931, 415.
- ⁴ ياسن سعادة، المرأة الجزائرية - بين ما كتبه الفرنسيون الكولوناليون وبعض الجزائريين وما أبرزه الواقع، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، (د. ت)، ص 04.
- ⁵ محمد ديب، الدار الكبيرة، ترجمة سامي الدروبي، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1985م، ص 38.
- ⁶ المصدر نفسه، ص 39.
- ⁷ أحلام يونس وحسيبة كسير، صورة الطفل في الرواية الجزائرية المعاصرة "رواية الدار الكبيرة أنموذجا"، إشراف، العمري آسيا، مذكرة تخرج لاستكمال الماستر في اللغة والأدب العربي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة واللغة الأدي، تخصص أدب جزائري، جامعة عبد الرحمان ميرة، بجاية، الجزائر، 2012م/2013م، ص 33.
- ⁸ محمد ديب، المصدر السابق، ص 24.
- ⁹ Abd El Aziz Djeniene, Le thème de la faim dans la grande maison de Mohamed Dib, sous la direction du M. Hammouda Mounir, mémoire pour obtenir du diplôme de Master 02, Faculté des lettres et des langues, Département de français, spécialité: Français, Option: langue, littérature et culture, Université Mohamed Kheithar, Biskra, Algérie, 2014/2015, p23,26.
- ¹⁰ مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، إشراف، ندوة مالك بن نبي، دار الفكر المعاصر، ط 2، دمشق، سوريا، 1984م، ص 19.
- ¹¹ الرئيس هي حلوى تبسبة تصنع من الطحين والسكر والتمر والزيت.
- ¹² المصدر نفسه، ص 79.
- ¹³ Maurice Violette, Op-Cit, p412 - 416.
- ¹⁴ جمال الدين الألوسي، الجزائر بلد المليون شهيد، وزارة الثقافة والإعلام، مطبعة الجمهورية، الجزائر، 1970م، ص 266.
- ¹⁵ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي "1954م-1962م"، دار البصائر للنشر والتوزيع، ج 10، حسين داي، الجزائر، 2007م، ص 162.
- ¹⁶ المصدر نفسه، ص 14.
- ¹⁷ محمد ديب، المصدر السابق، ص 14-15.
- ¹⁸ المصدر نفسه، ص 23.
- ¹⁹ أحلام يونس وحسيبة كسير، المرجع السابق، ص 36.
- ²⁰ محمد ديب، الدار الكبيرة، المصدر السابق، ص 16 و 17.
- ²¹ محمد ديب، الدار الكبيرة، المصدر السابق، ص 17.
- ²² دكتور مختص في الطب عمل طويلا في مستشفى مدينة الجزائر في الفترة الممتدة ما بين (1935م-1945م).

- 24 أحمد عيساوي، مدخل إلى تاريخ الجزائر الحديث، ط1، القاهرة، مصر، 2014م، ص67.
- 25 محمد ديب، الدار الكبيرة، المصدر السابق، ص59.
- 26 المصدر نفسه، ص91.
- 27 يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية "1830م-1954م"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص52.
- 28 المرجع نفسه، ص53.
- 29 -أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص41.
- 30 فرحات عباس، حرب الجزائر وثورتها 1-ليل الاستعمار-، تر: أبو بكر رحال: تصدير: عبد العزيز بوتفليقة، منشورات ANEP، الجزائر، 2005، ص104-116.
- 31 هو النظام الذي يجعل المزارع لا يعطي عماله سوى خمس الغلة.
- 32 شريف بن حبيلس، المصدر السابق، ص67.
- 33 المصدر نفسه، ص68.
- 34 محمد ديب، الحريق، المصدر السابق، ص118.
- 35 محفوظ قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية (1919م-1939م)، تر: أحمد بن البار، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ج1، برج الكيفان، الجزائر، 2011م، ص362.
- 36 المصدر نفسه، ص364.
- 37 المصدر نفسه، ص833.
- 38 شارل روبري أجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة -من انتفاضة...، المرجع السابق، ص835.
- 39 المصدر نفسه، ص75.
- 40 محمد ديب، الحريق، المصدر السابق، ص159.
- 41 المصدر نفسه، ص154.
- 42 محمد ديب، المنسج، ترجمة أحمد بن محمد بكلي، سيديا للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص114 و115.
- 43 المصدر نفسه، ص117.
- 44 محمد ديب، الحريق، المصدر السابق، ص136.
- 45 المصدر نفسه، ص138.
- 46 المصدر نفسه، ص139.
- 47 نفسه.
- 48 محمد ديب، الحريق، المصدر السابق، ص224.

⁴⁹ المصدر نفسه، ص224.

⁵⁰ المصدر نفسه، ص65.

⁵¹ محمد ديب، المنسج، المصدر السابق، ص188.

⁵² المصدر نفسه، ص133.

⁵³ نفسه.

⁵⁴ المصدر نفسه، ص257.